تلقيت من الأديب السورى « يوسف جاد الحق » رسالة يعقب فيها على قصص نشرت بالمجلة ، وقد خص بأكثر نقده قصة لى نشرت فى عدد نوفمبر سنة ١٩٦٤ ، وهى قصة « الطاقية » ، فرأيت من حقه على أن أنشر نقده ، ومن واجبى نحوه أن أعلق على هذا النقد ، وان يكن فى ايجاز يقتضيه المقام .

كتب الأديب يقول :

« هذه القصة من النوع الهادف الملتزم فهى محاولة لقصة اشتراكية تظهر مدى التطور الذى أصاب الحياة العامة فى ريف العربية المتحدة بعد الثورة ، والمحاولة ناجحة فى فكرتها ، جميلة فى عرضها ـ كما هو العهد بقصص الأستاذ « تيمور » دائما ـ غير ان الحوار لم يكن ناجحا فى كثير من المواضع . ذلك ان التناقض ـ او لنقل السذاجة ـ كانت تتجلى فى تلك الأسئلة التى يطرحها بطل القصة القاهرى على من كان يصادفهم من أهل القرية بعد وصوله اليها عقب غيبته الطويلة عنها نيفا وثلاثين عاما . فهو عند وصوله محطة القرية « السلامية » ، وقد جاءها ليجدد العهد مع أسرة «الحاج ابو صالح» صديق والده القديم ، وليرى « ستوتة » ابنته التى كان قد رافقها شهرا أو أكثر حينذاك ، وقد كانا فى العاشرة من عمرهما او نحوها ـ يفاجأ اول ما يفاجأ بتغير الملامح والسمات للمنطقة كلها ، ولمحطة السكة الحديد التى نزل بها ، حتى ليوشك ان ينكرها . ولكنه لا يلبث أن يدرك انه لم يخطىء طريقه ، وذلك عندما يقرأ اللوحة المعلقة على الجدار ، ويرى السيارات العامة والخاصة غادية رائحة من القرية واليها . فقد أصبحت هذه هى الوسيلة الحديثة للمواصلات بين المحطة والقرية . وهنا نجد أنفسنا أمام المفارقة الأولى حين نرى بطل القصة ـ على الرغم من وضوح معالم التغير هذه ـ يبدى من ضروب الدهشة فى تساؤلاته وتصرفاته جميعا ما يجعلنا نحس الافتعال والتكلف واضحين . فهو يصر أولا على الا يذهب الى القرية الا على ظهر حمار ـ وسيلة المواصلات

القديمة التى اتخذها يوم جاء اليه مع والده فيما مضى ـ ويعثر على الحمار اخيرا ، ولكن كيف ؟ لنقرأ معا كلام الأستاذ « تيمور » :

« ومر بى فلاح مزهو على ظهر دابته ، فأشرت اليه استوقفه ، وما ان دنوت منه حتى قلت :

اريد الوصول الى قرية «السلامية».. كم تطلب من أجر على المشوار ؟

فرمقنى بطرف عينه ، وهو معتل حماره ، لم ينزل عنه ، وهمهم :

انا لا أؤجر حمارى للركوب يا أفندم ..

وهم أن يتابع سيره ، فأمسكت به اقول :

سأعطيك أجرة سخية ترضى بها .

ولم أتوان فى اخراج قطعة فضية كبيرة ، وانا اواصل الحديث :

هاتها ...

فرمق الرجل القطعة فى يدى لحظات، ثم مد يده قائلا :

هاتها .. » .

الأستاذ تيمور من اول القصة الى آخرها يقول لنا ان كل شىء قد تغير : معالم القرية ووسائل العيش فيها ، مستواها الثقافى والاجتماعى .. كل شىء .. والسؤال الآن هو هل يتغير كل شىء فى القرية الا الانسان نفسه ؟ كيف يعقل أن يشمل التغير كل مظاهر الحياة هناك ، ثم تند عن هذا المواطن تصرفات كهذه لن يدفعه اليها الا حاجة ملحة ، أو فقدان الكرامة . وهذا مما لا يتفق مع البيئة الجديدة ، ولا ينسجم مع مرحلة التطور التى تمت ، خاصة بعد أن رسم لنا الكاتب سمات من شخصية الرجل المزهوة التى ترمق الناس بطرف العين لفرط خيلائها . وبعد أن رفض بلسانه تأجير حماره ، واذا به يعدل عن رأيه ويبدل موقفه كله بمجرد أن يرى القطعة الفضية . ان التغيرات التى حدثت تفرض بالضرورة ان يصبح امثال هذا المواطن فى حال من السعة وعلى قدر من الكرامة يتنافيان مع امكان أن يسيل لعابه لمرأى القطعة الفضية .

واذا انتقلنا الى موضع آخر من القصة ، ومضينا مع بطلها وهو يدخل القرية ويرى الأنوار الكهربائية والشوارع الحديثة ، ويعمد الى البحث عن الذين جاء من اجلهم ، فيسأل فتى يرتدى حلة شبيهة بحلة الكشافة عن اسرة الحاج « أبو صالح » فينبئه هذا انه لن يجد احدا تلك الليلة فى داره ، لأن القرية تحتفل بالذكرى السنوية الأولى لتأسيسها ، واهلها اما بين النظارة يتفرجون أو بين جوقة الفنانين يتأهبون للتمثيل ، وانه لا سبيل الى البحث عنهم بين المتفرجين لكثرتهم ، فليحاول أن يجد ضالته بين جماعة الفنانين والغريب اننا نجد صاحبنا يمضى فعلا ومن غير تردد وراء الفتى للبحث بين الفنانين . فهل كان يتوقع حقا أن يجد الحاج « أبو صالح » الرجل الذى لابد قد أصبح عجوزا (ان كان ما يزال حيا) بين هؤلاء ؟ أم كان يأمل أن يجد بينهم « ستوتة » التى

باتت تناهز الأربعين ؟ كيف يتقبل مثل هذا الافتراض وبهذه البساطة ، اللهم الا اذا كان يريد أن يدفع القارىء الى خشبة المسرح وخلف الكواليس ليتحفه بمفارقة اخرى اكثر طرافة وادعى للدهشة . وذلك حين يأخذ فى التفرس فى وجوه الفنانين والفنانات ، ثم يهتف بواحدة منهم : « ستوتة » ... « ستوتة » .. ويتبين لنا ان هذه التى هتفت بها صاحبنا هى « فيفى » ابنة « ستوتة » ، ولكنها لم تبلغ العشرين من عمرها .

كيف يمكن أن يخطىء امرؤ بين فتاة فى العشرين أو دونها وفى مثل عمر ابنائه ، وبين أمها التى ناهزت الأربعين وتماثله هو سنا ؟

ونسمعه بعد هذا يسأل « فيفى » عن الحاج « أبو صالح » وعن «ستوتة» فتخبره بانهما ماتا .. ولا يبدى صاحبنا ما هو خليق بمثل هذا الموقف من حزن ، أو على الأقل من دهشة المفاجأة . ويمر هذا الخبر الخطير ببساطة ، على الرغم من انه جاء بدافع الذكرى والحنين لرؤيتهما بعد ثلاثين سنة . ثم يسألها عن الفرن الذى كان ينام فوقه هو وستوتة فى الزمان الغابر ، وعما اذا كان من الممكن أن يقضى ليله فوق سطحه ، فتنبئه أن الفرن قد اندثر . ونحن اذا استطعنا أن نفهم كيف يسألها عن الفرن البدائى القديم وعن رغبته المبيت فوقه ، حتى بعد أن شهد كل معالم التطور هذه ، نجد أنفسنا عاجزين عن فهم أو هضم ذلك السؤال المتكلف الذى يقول فيه باستغراب :

وكيف تحصلون على خبزكم ؟

الحق اننا لا ندرى كيف يحصلون على خبزهم بعد أن اندثر الفرن العريق . وكأنه ليست هناك وسائل حديثة يعرفها البطل (وهو ابن المدينة) يحصل بواسطتها الناس على خبزهم ، خاصة بعد أن غدت القرية « شعلة من نور الكهربا ، ومبانيها متسقة الهندسة جميلة التصميم » اى بعد أن اصبحت الحياة فيها كالمدينة التى جاء منها سواء بسواء .

ونسمع فيفى تجيب بأنهم يحصلون على الخبز من مخبز الجمعية التعاونية، فيعود هو الى ادهاشنا من جديد بقوله :

امر عجيب !

فلماذا هو امر عجيب ، والقاهرة نفسها التى يعيش فيها ، ومدن اخرى غيرها او قرى حديثة كثيرة تحصل على خبزها بنفس الطريقة ، والجمعيات التعاونية منتشرة فى ارجاء الجمهورية كلها .. او ليس هذا عجيبا حقا ؟ » .

* * *

ذلك ما كتبه الأديب « يوسف جاد الحق » فى التعقيب على قصة « الطاقية » .

وهذا مجمل تعليقى على مواضع النقد ، ارجو ان ينفسح له صدر الناقد الفاضل ، والا يضيق به صبر القراء الكرام :

١ ـ فاما اصرار الرجل على أن يذهب الى القرية على ظهر حمار ، فليس فى ذلك مفارقة ، وما كانت معالم التغيير الجديد لتقتل رغبته فى استعادة المظاهر التى ألفها فى ماضيه ، فان هذه المظاهر هى التى بعثته على أن يؤم القرية ، احياء لذكرياته فى ربوعها .

٢ ـ واما ان التغيير الذى طرا على القرية لم يمنع وجود صاحب حمار يرضى ان يؤجر حماره لراكب اذا أجزل له العطاء ، فذلك هو الأمر الطبيعى ، وغيره تكلف وافتعال ، وليس فى التأجير ما يدل على الحاح الحاجة ، او ما ينافى الكرامة . فالكسب مطلب حلال ، والاستزادة منه طموح مشروع ، و « سيل اللعاب » لمرأى القطعة الفضية مما تقتضيه الغرائز البشرية ، ومما هو ثابت للانسان على تعاقب الزمان وتباين المكان وتغير الحال !

٣ ـ واما انى جعلت الرجل يبحث عن « ستوتة » وابيها بين الفنانين فى المسرح ، وقد مضى على فراقه اياهما نحو ثلاثين عاما ـ فالواقع انى أطلقت الرجل يبحث ـ كما قلت نصا فى مواضع متفرقة ـ : « اين تسكن تلك الأسرة ؟ » و « من يعينه على أن يلقى واحدا منها ؟ » و « من يرشده الى دارها ، ليجدد العهد معها ؟ » . فليس فى الأمر اذن تلك المفارقة المزعومة .

٤ ـ واما انى تركت الرجل يخطىء بين فتاة فى العشرين وأمها التى ناهزت الأربعين ، فالحق انى لم أتركه يخطىء ولكن الرجل حين رأى وجها يعيد هذا الخطأ ، ولم يخطر لى ذلك ببال ، اليه بملامحه وسماته وجه الأم ، اندفع هاتفا باسمها . وتلك حالة طبيعية يأنسها كل امرىء تمر به هذه التجربة فى حياته .

٥ ـ واما أن صاحبنا لم يظهر الحزن حين علم بوفاة فتاة أحلامه وأبيها ، فالحقيقة أنه اظهره بأجلى ما يمكن ان يكون فى موقفه ، وقد عبرت عن ذلك فى جملة تصويرية مركزة ، حين قلت: « ومرت برهة والرجل صامت خاشع البصر » وليس أصدق من ذلك تعبيرا عن مواجهة ذكرى نعى مضت عليه سنون !

٦ ـ واما تعجب الناقد من ان يسأل الرجل عن الفرن ، بعد ان رأى تمدن القرية ، ويسأل أين يخبزون ، وهو يعرف كيف يصنع الخبز فى المدن ، فان هذا التعجب لا محل له ، وللرجل ان يسأل عن الفرن ، وهو مهوى نفسه ، وموضع انسه ، ومناط ذكرياته ، وسؤاله عن الخبيز ليس سؤالا عن شىء مجهول له ، او شىء لا يستطيع تصور الجواب عنه ، ولكنه سؤال عرضى يسترسل به فى الكلام ، طوعا لسياق الحديث . وكثير من الحوار القصصى القائم على سؤال وجواب ليس فيه حتما كشف عن مجهول ، او اخبار . بجديد !

ومهما يكن من امر هذا النقد ، فهو فى تفاصيل ثانوية من مواقف القصة الفرعية ، وفى التفاصيل التى من هذا القبيل تتخالف الأفهام وتتغاير الأذواق .

وللأديب الناقد تقدير خالص لرأيه ، وشكر جزيل لفضله ، وسلام .